الشيخ على يوسف

(١٨٦٨-١٩١٣)

رائد الصحافة المصرية الأول

(مدرسة المؤيد)

obeikandl.com

كان الشيخ على يوسف هو أول مصرى يصدر جريدة يومية تقف من الاحتلال موقف المعارضة من منطلق وطنى حيث كانت الصحافة فى ذلك الوقت فى أيدى أجانب لذلك أطلقوا عليه رائد الصحافة المصرية الأول ولعبت جريدة المؤيد دورًا مهمًا فى النضال الوطنى ضد الاحتلال البريطانى وظلت منذ أنشأها الشيخ على يوسف لمساعدة رموز الحركة الوطنية المصرية فى عام ١٨٨٩ تهاجم الاحتلال البريطانى بعنف حتى عام ١٩٠٠ ثم تحولت تحت تأثير الخديو عباس إلى مهادنة للاحتلال ويكشف ذلك عن إحدى سلبيات تبعية الصحافة للسلطة فعندما تسيطر السلطة على المضمون التحريرى للصحف فإنها تنجح فى الانحراف بها عن وظيفتها الأساسية فى التعبير عن أهداف الشعب وطموحاته المشروعة فى التحرر السياسى والاجتماعى والثقافى. كان على يوسف يرتجل صناعته الصحفية فى كل شىء فى التقاط الأخبار وفى جمع الآراء وفى تحرير المقالات وفى سياسة الجمهور وسياسة ولاة الأمور، وقد ظهر ذلك فى قضية التلغرافات التى أحيل من أجلها إلى القضاء: لأنه كان يستطلع أخبار الحملة على السودان قبل وصولها إلى ديوان الوزارة لأنه كان على صلة بموظف المكتب التى يتلقاها، ولم يكن أحد يعرف ذلك وكانت تعبئة الآراء كما يرى عباس العقاد قبل هذا الجيل لازمة وعسيرة فى وقت واحد. بل كانت إدارتها كلها مجهولة مخترعها كل صاحب صحيفة على سنته فى اختراع هذه الأدوات المرتجلة.

أما على يوسف فقد كانت وسيلته لتعبئة الآراء أن تكون شخصية بينه وبين نفسه وصحبه ومن يرجع إليهم فى حياته الخاصة أو يرجعون إليه ويظهر ذلك عندما اتهم اللورد كرومر هذه الأمة (مصر) بالتعصب الدينى وعداوة الأجانب فقام الشيخ على يوسف بجمع نماذج الآراء التى تدفع هذه التهمة عن كل صاحب صفة، وكان يرشحه لإبداء الرأى فيها فقال الخواجة ميماراكى اليونانى «أشهد أننى ما شعرت قط فى معاملاتى مع المصريين بأننى أعامل أناسًا يخالفوننى فى العقيدة» وقال الفرنسى وكيل مصرف الكريدى ليونيه الفرنسى: «إننا لا نشعر بهذا التعصب الذى اتهمت به الأمة المصرية.. اللهم إذا كان التعصب موجودًا فى غير الدائرة التى إليها معاملاتنا» وقال شكّور باشا الإدارى اللبنانى «إننى أفضّل أن أمشى فى جهات السيدة زينب والنحّاسين على أن أمشى وحدى ليلا فى جهات مونمارتر بضواحى باريس». وقال إسكندر عمون المحامى: «إن المصرى أكثر إكرامًا للغريب من سائر الشعوب». وقال باسيلى تادرس باشا: «لا صحة لما يقال من وجود التعصب الدينى والجنسى فى مصر». وحين سأل الشيخ كلاً من السيد عمر مكرم والشيخ محمد بخيت من رجال الدين الإسلامى لم ينس أن يسأل رجلاً ينكر الأديان جميعًا وهو الدكتور شبلى شميل الذى قال: «إن التعصب غير

موجود فى مصر على الإطلاق». تلك هى طريقته فى الدفاع عن قضاياه الصحفية والسياسية فدائمًا ما يدعم رأيه برأى أصحاب الشأن ويرد بالحجج والبراهين القاطعة التى تخرجه منتصرًا لرأيه ووجهة نظره.

وُلد على يوسف بقرية نائية فى صعيد مصر تسمى «بلصفورة» وتوفى والده بعد عام من ولادته ولم يترك ميراثًا مما اضطرَّ أمه إلى الانتقال به إلى بلدتها «بنى عدى» التابعة لمركز منفلوط بمحافظة أسيوط حيث قام أخواله بتربيته، وفى تلك النشأة يرى الدكتور محمد حسين هيكل أن اعتدال على يوسف إزاء الإنجليز كان سببه أنه من أبناء الفلاحين الذين لم ينسوا حكم الأتراك ومظالمهم، ورغم هذه النشأة التى ذاق فيها على يوسف مرارة الحرمان نجده لا يتخذ مواقف إصلاحية بارزة خاصة فى قضية العدالة الاجتماعية وذلك يرجع إلى أن الحركة الوطنية ركزت بشكل أساسى على القضية الوطنية الكبرى وهى الاستقلال. كما أن على يوسف ربط نفسه بسياسة الخديو عباس وربما كان هذا الارتباط عاملاً أساسيًا فى إهماله بقضية العدالة الاجتماعية ومعاناة الفلاحين الفقراء الذين نشأ بينهم.

بدأ على يوسف فى دراسة العلوم الدينية فى كُتَّاب قرية بنى عدى حيث أتم حفظ القرآن الكريم وهو فى سن الثانية عشرة من عمره وانتقل بعد ذلك إلى القاهرة حوالى ١٨٨١م ليلتحق بالأزهر بهدف أن يصبح فقيهًا أو مُعلمًا، وقد حاول على يوسف أن يثقف نفسه بقراءة كُتب التاريخ والأدب والشعر لكنه لم يُكمل دراسته الأزهرية ولم يحصل على شهادة العالمية فكان هناك نقص واضح فى ثقافة على يوسف وهو جهله باللغات الأوروبية وربما كان ذلك عيبًا كبيرًا فى الصحفى فالفن الصحفى هو فن أوروبى، لكنه عوَّض ذلك ا لنقص باطلاعه على البرقيات التى تصل إلى المؤيد من وكالات الأنباء الأجنبية بعد ترجمتها وكان يطلع على كل ما يكتبه الأجانب فى المسائل المصرية، وكان يطلع أيضًا على الكتب المترجمة من الفرنسية إلى العربية بالإضافة إلى قوة ذاكرته وذكائه وفطنته. بدأ على يوسف خلال دراسته بالأزهر يتجه إلى نظم الشعر حيث استطاع نشر ديوان كامل عام ١٨٨٥ بعنوان «نسمات السحر» ولكنه لم يحقق نجاحًا فى مجال الشعر.

بدايات صحفية ومدرسة المؤيد

اتجه الشيخ على يوسف للصحافة حيث أخذ يرسل مقالاته إلى الصحف ثم ساعد أحمد فارس الشدياق فى تحرير جريدة القاهرة بعد ذلك محررًا بجريدة مرآة الشرق ووصل على يوسف إلى رئاسة تحريرها بعد عام ١٨٨٤، ولكنها توقفت فى عام ١٨٨٦م ففكر على يوسف بعد ذلك فى إنشاء جريدة أدبية وقد واجه صعوبات كثيرة منها ضرورة الحصول على رخصة

بإصدار الجريدة وعدم وجود رأس المال اللازم لها لكنه بمعاونة الشيخ أحمد ماضى زميله فى الأزهر استطاع إصدار جريدة الآداب عام ١٨٨٧ ولم يمض على إصدار هذه الجريدة الأدبية عامين حتى أخذت حظها من الانتشار والرواج وقد عرف الوطنيون الشيخ على يوسف من خلال هذه الجريدة فجاء إصداره لجريدة «المؤيد» عام ١٩٨٩ بمعاونة رجال الحركة الوطنية. وقد كانت أهم خطوة فى حياته حيث أثبت على يوسف كفاءته كمخبر صحفى. فقد استطاع التغلب على الحظر الذى فرضته الحكومة المصرية الملتزمة بنصائح لورد كرومر على الأخبار وخاصة بالنسبة لجريدة المؤيد من خلال إقامة علاقات مع موظفى الدواوين والحصول منهم على الأخبار واستطاع على يوسف تحقيق انتصارات صحفية والانفراد بنشر أخبار كانت ذات أهمية كبيرة بالنسبة للشعب المصرى، وكان أهمها نشر التلغراف السرى الذى أرسله كتشنر سردار الجيش البريطانى إلى وزير الحربية، وقد اتضح من خلال هذه القضية التزام على يوسف بمبدأ من أهم مبادئ الصحافة الحديثة وهو حق الصحفى فى الاحتفاظ بسرية مصادر أخباره وعدم الكشف عن أسماء هذه المصادر وهو ما يعرف بسر المهنة، وقد أصبح هذا المبدأ من أهم المواد التى تتضمنها مواثيق الشرف الصحفى فى كل دول العالم. أدرك على يوسف أن الإعلام هو أهم وظائف الصحيفة اليومية وأن الجريدة التى لا تقوم بوظيفتها فى إعلام الرأى العام بالحقائق تتخلى عن وظيفتها الأساسية وبالتالى تتعرض لخطر انصراف القارئ عنها، وقد واجه على يوسف منافسة شديدة فى مجال التغطية الخبرية خاصة من جانب جريدة «المقطم» التى اختصها كرومر بالأخبار لكى تحقق رواجًا، ورغم ذلك فإن «المقطم» بكل ما كان يعرضه من تفاصيل وكل ما ينفرد به لم يكن يقدم كل ما يتوافر لديه من أخبار حرصًا على حجب ما تريد السلطات البريطانية عدم نشره وما فيه من إساءة لرجال الاحتلال على الجانب الآخر كان على يوسف ينشر أخبار تسىء إلى الاحتلال ورجاله، قام على يوسف أيضًا بدور المراسل المتجول لجريدة المؤيد خاصة فى أثناء زيارات الخديو عباس لتركيا وأوروبا. وقد أثبت فى هذا المجال قدرة كبيرة حيث رافق الخديو عباس فى أول زيارة له إلى تركيا وقام بإمداد «المؤيد» بوصف تحليلى وتفصيلى لهذه الرحلة فى ١٢ رسالة قام بجمعها بعد ذلك فى كتاب بعنوان «أيام الجناب الخديو المعظم فى دار السعادة» وقد اتخذت هذه الرسائل شكل المقال ولم يفصل على يوسف فيها بين الخبر والتعليق وربما كان ذلك لرغبته فى توظيف هذه الأخبار لخدمة أغراض سياسية وهو أسلوب دعائى وليس أسلوبًا صحفيًا. إن رغبة على يوسف فى مدح الخديو عباس والدفاع عنه جعلته يتناسى قاعدة مهمة من قواعد التحرير الصحفى وهى الفصل بين الخبر والتعليق وضرورة أن يقوم المحرر بكتابة الخبر بموضوعية ودون تدخل منه أو إقحام رأيه فى الخبر. لكن الشىء المؤكد هو أن الشيخ على

يوسف له دورًا مهمًا فى تطوير المقال الصحفى فلغة المقال الصحفى عنده تنقسم إلى ثلاثة أجزاء.

أولاً: سهولة الألفاظ حيث أدرك أنه يكتب فى جريدة يومية يخاطب من خلالها الرجل العادى ومن ثَمَّ يجب ترك الألفاظ الغريبة وغير المألوفة فى اللغة والكلمات غير المتداولة.

ثانيًا: البعد عن الأساليب البلاغية القديمة مما اعتبر بعض الباحثين الشيخ على يوسف بداية كمدرسة التجديد فى الصحافة المصرية والتى نقلت أسلوب الكتابة من قيود الماضى التى التزمت بها صحافة مصر منذ نشأتها حيث كان النثر العربى يميل إلى السجع وغيره من ألوان البديع. إن تحرر أسلوب على يوسف من الزخرفة اللفظية والمحسنات البديعية لم يأت فجأة لكنه فى بداياته كان يستخدم الزخرفة اللفظية والمحسنات البديعية ثم وجد أن ظروف الحركة الوطنية التى تواجه الاستعمار الإنجليزى وظروف القارئ العادى فى حاجة إلى أسلوب جديد خال من قيود البلاغة العربية القديمة.

ثالثًا: استخدام الأساليب العصرية والعبارات المتداولة فى الكتابة وهو تطور صحب التخلص من الأسلوب القديم حيث استخدم المصطلحات الجديدة التى لها أهميتها فى الحياة العصرية للمجتمع المصرى مثل الحكومة والأمة والوطن وواجبات المواطن.

أما مضمون المقال الصحفى عند على يوسف يتميز باستخدام الأسلوب المنطقى فى الإقناع وقد اكتسب هذا الأسلوب من خلال دوره فى الحركة الوطنية ودفاعه عن حقوق مصر فى مواجهة الاستعمار، ولذلك فقد اتجه إلى المناقشة العقلية لحجج الاستعمار البريطانى ومؤيديه والبعد عن استخدام أسلوب الاستعمالات العاطفية مما جعل البعض يسميه بالأسلوب السياسى فقد كان أسلوب على يوسف فى المؤيد ينير الطريق ويناقش المسائل فى هدوء. ويعلق على الحوادث تعليقًا حكيمًا ودقيقًا وينتقد ولاة الأمور فى الصميم فى حين كان اللواء يثير الجماهير ويهيج الشعب ويبعث الحقد فى النفوس ويوقظ الكراهية فى القلوب.

يتميز أسلوب على يوسف أيضًا بالآتى:

١ - الرد على الحجج التى يثيرها الخصوم السياسيون بعد عرضها وتفنيدها.

٢ - صياغة أجزاء من المقال على شكل مقدمات ونتائج.

٣ - التمهيد للنتائج بمسلمات لا تقبل الشك.

٤ - استخدام أسلوب الاستفهام الاستنكارى.

٥ - اعتماد الكاتب على الواقع المحسوس يشتق منه الدليل على صحة رأيه فى مسألة ما.

أيضًا كان المقال الصحفى عند على يوسف يتضمن أجزاء من التاريخ العربى والإسلامى والمصرى خلال مقالاته، لذلك يقول عنه الخديو عباس إن على يوسف قد نجح فى بعث

الإحساس فى قلوب مواطنيه بشخصيتهم القومية لكثرة ما استمعوا إلى الحديث عن علاقات مصر وعن ماضيها وحقوقها فكان على يوسف حلم بأحداث التاريخ وكان استشهاده بالتاريخ العربى والإسلامى والمصرى يهدف إلى بعث الإحساس بالروح القومية فمصر تطلب لنفسها حكومة دستورية لأن الشورى من قواعد أحكام الشريعة الإسلامية فى إدارة شئون الأمة تلك الشورى التى وجدت فى الإسلام قبل أن توجد فى إنجلترا الدستورية المنظمة. وفى أسلوبه أيضًا وضوح المعانى وترابط الأفكار وتمتعه بالخطابة السياسية وعلى الرغم من صلته المعروفة بالخديو فإنه كان يجيد الانتصار للقضايا العامة على نحو ليس فيه أدنى تفريط فى حق من حقوق الشعب.

الشيخ على يوسف ومصطفى كامل

يرى المحللون أن على يوسف ومصطفى كامل لهما طريقتان مختلفتان فى الكتابة وفى الخطابة السياسية وفى الدعوة الوطنية ولقد فرق النقاد بينهم أن طريقة مصطفى كامل هى طريقة التطرف والحماسة وأن طريقة على يوسف هى طريقة المحافظة والاعتدال. ويرى فريق آخر أن الفرق بينهما هو الفرق بين التعليم الحديث والتعليم القديم أو الفرق بين الشباب والكهولة أو الفرق بين السياسة القومية وسياسة القصر والحاشية الخديوية أو الفرق بين الخطيب المنطلق والكاتب الحصيف.

أما عباس العقاد فيرى الفرق الوحيد هو شعور العصامية فى نفس الرجل الذى كان مَثَله الأعلى فى الحياة أن يصل باجتهاده وحيلته إلى مكانة السيد الموقر وكان من حق العصامية الناجحة عند على يوسف أن يتكلم مع ذوى الاعتبار كما يتكلم ذوى الاعتبار فهو لا يرضى السياسة على مذهب الرعاع بل يرضاها على مذهب النبلاء والأرستقراطيين.

وكان الشيخ على يوسف دائمًا ما يصف مصطفى كامل بالطائش ويكثر من وصف سياسيته بالطيش، وقد كان الشيخ على يوسف يكتب عن خصوم القصر الخديو جميعًا فيبيح لقلمه من المغامز فى الكتابة عنهم ما يرضى القصر ويستجيب لأمره وإيعاهز لكنه كان يرفض بشدة أن يهاجم رجل ممن أحسنوا إليه فى نشأته الأولى مثل محمد عبده وحسن عاصم وسعد زغلول لأن هذا الرفض سمة الرجل الكريم تدفع عنه سبة النعمة المحدثة والمقام المدخول فإذا جاء فى صحيفة المؤيد شىء يمس هؤلاء مرضاة للحاشية الخديوية كان يترك كتابته لغيره أو يفرغه فى القالب الذى يوافق مظهر الكرام وينفى عنه شبهات العتب والملام.

الشيخ على يوسف والإمام محمد عبده

كانت بين الشيخ على يوسف والشيخ محمد عبده علاقة صداقة قوية كان لها أثر كبير فى اتجاهات على يوسف السياسية مما دفع البعض إلى تفسير اعتدال على يوسف تجاه الإنجليز بعد حادث فاشودة بأن محمد عبده استطاع أن يخفف من شدة المؤيد وصاحبه فى عداوته للإنجليز فهدأت لهجته وخفت حدته ورغم الصدام الذى حدث بين الخديو ومحمد عبده الذى بدأ فى أول يناير ١٩٠٤ بسبب رفض الشيخ محمد عبده أوامر الخديو بتوجيه إحدى كساوى التشريفة إلى مفتى المعية فبدأ الخديو فى شن حملة تشهير على الشيخ محمد عبده يتهمه فيها بالكفر والزندقة ولم يستطع الخديو خلال هذه الحملة أن يستخدم «المؤيد» رغم ارتباط صاحب «المؤيد» الشديد بالخديو فقد رفض على يوسف مهاجمة الشيخ محمد عبده كما كان يريد الخديو لكنه لم يقف مع الإمام فى مواجهة الخديو حيث حاول إيجاد التوازن فى علاقته بالاثنين، وقد استمرت علاقته بالشيخ محمد عبده طيبة حتى وفاة الإمام محمد عبده فكرَّس صفحات الجريدة خلال الأيام التالية لوفاته لنشر المراثى التى انهالت عليه تأبينًا للشيخ محمد عبده.

الشيخ على يوسف وحزب الإصلاح

عمت الصبغة الدبلوماسية كل منحى من مناحى تفكيره وعمله فى السياسة وفى علاقاته بالسياسيين الوطنيين وغير الوطنيين وظهرت فى كل تصرف من تصرفاته العامة حتى فى صياغة المبادئ الوطنية التى قررها لحزبه أساسًا للمطالبة بحقوق الأمة ونظام الحكومة فقد أوشك أن يجعل هذه المبادئ توريطًا دبلوماسيًا من كلام المحتلين أنفسهم ليسكتهم ولا يفتح لهم بابًا للاحتجاج على ولى الأمر أو اتهامه بتحريض الصحف والأحزاب عليهم حيث كان انتساب الشيخ على يوسف إلى القصر الخديوى أمرًا مفروغًا منه مفهومًا بالتواتر بين دوائر السياسة الشعبية والرسمية فى القاهرة وعواصم الدول ذوات الامتيازات فى هذه البلاد وكان وكلاء المؤيد يزورون الدواوين خارج القطر كأنهم ملحقون بسفارات القصر قبل أن توجد له سفارات. كان الشيخ على يوسف يسمى حزبه بحزب «الإصلاح» ويصفه بأنه إصلاح على المبادئ الدستورية ولا يذكر الدستور على إطلاقه لأنه قد يزعج الدولة العثمانية صاحبة السيادة التى لم تكن فى بلادها حكومة نيابية وقد يزعج الإنجليز أصحاب السلطان الفعلى كما يزعج الخديو صاحب السلطة الشرعية، وحينما ذكر على يوسف الاستقلال ذكره مشروطًا بالمعاهدات التى ارتبطت بها بريطانيا العظمى وقال إن تحقيقه تنفيذًا لوعود هذه الدولة بالجلاء وقد زادت الوعود عن السبعين.

الشيخ على يوسف واللورد كرومر

اشتد الشيخ على يوسف غاية شدته فى الحملة على اللورد كرومر بعد عزله من منصب المعتمد البريطانى فى القاهرة وقد كانت المعركة القلمية التى أعادت الهتاف بالحياة والتحية إلى مسمع الشيخ وجمعت الرأى العام كله على تعدد ألوانه وأذواقه فى صف واحد مع الشيخ على يوسف فهى معركة عنيفة دارت بين الصحف ورجال السياسة حول توديع اللورد كرومر بعد خطابه الذى ألقاه على ملأ من كبار الموظفين وأصحاب المقامات الرسمية من المصريين والأجانب والشرقيين، واستطاع الشيخ على يوسف أن يكون دبلوماسيًا وحماسيًا إلى الغاية فى دفاعه عن ولى نعمته الخديوى عباس حلمى الثانى خصم اللورد كرومر اللدود. كتب الشيخ على مقاله فى السابع من شهر مايو ١٩٠٧ وكان حريصًا على ترويج الظن الذى شاع فى البلد عن نجاح الخديو فى مساعيه عند بلاط سان جيمس لعزل كرومر وتعيين رجل من أصدقائه فى مكانه ولكن كان على حذر شديد من إعلان هذه الدعوى مخافة أن يغضب الدولة البريطانية ويضطرها إلى الأخذ بناصر عميدها المخذول صيانة له من مهانة الشماتة وصيانة لها من الاعتراف أمام الناس بخذلانها كرجالها وخدام سياستها. فكان الشيخ على يوسف على أحسن حال من الكياسة والإنصاف فاتهم كرومر نفسه بأنه فضح حقيقة الموقف بثورته المحنقة فى خطاب الوداع ويسأل: لماذا كل هذا الحنق والرجل لم يفارق قصر الدوبارة على الرغم منه كما يقال؟ أى أنه فارقه رغم أنفه واعترف الشيخ على يوسف لكرومر بكل مآثرة من مآثره المدعاة فلا ينكر عليه حسنة واحدة يعتبر إنكارها عليه إنكارًا على دولته كلها من وراثه ثم يأتى بالخطبة الكرومية نفسها فلا يضيف إليها حرفًا من عنده بل يأخذها بنصوصها للإيقاع بينه وبين المحتفلين بوداعه وبين المتشيعين لسياسته والمسخرين أو المتبرعين بالشهادة لحكمه وحكم أعوانه ومستشاريه وكان الأمير حسين كامل على رأس المدعوين للاشتراك فى حفلة التوديع، فلم يكن تعليق على يوسف نقدًا للأمير عم الخديو بل كان إبرازًا واضحًا لإساءة كرومر إليه مرة بالإنحاء على أبيه إسماعيل ومرة بالسكوت عن الإشارة إليه كأن من سقط المتاع وهو حاضر أمام عينيه، فيقول الشيخ على يوسف فى مقاله: «هذا الأمير الجليل الذى والى جناب اللورد بالصداقة زمنًا طويلاً وخصه باحترام دائم وكان له فى عهده أعظم أثر فى خدمة البلاد معه خدمة حقيقية بأخذه الجمعية الزراعية الخديوية لم ير اللورد آنه خليق بكلمة ثناء يوجهها إليه فى جنب ما وجَّه من عبارات الثناء لغيره من الأحياء والأموات» ولم يتخذ الشيخ على عن أحد من المحتفلين باللورد كأنه خصم يحاربه وكأنه صديق اللورد وموضع حظوته بل كان حديثه عنهم جميعًا كأنهم ضحاياه وضحايا سياسته وسوء خلقه فى حاضره وماضيه، وقال كرومر عن رياض باشا أنه علق الجرس فى عنق الهرِّ فكان ثناء على

يوسف على رياض باشا أكبر من ثناء اللورد عليه ولكنه استدرك قائلاً إن اللورد لم يقل أن رياض باشا لما أراد فى زمنه هو أن يعلق الجرس فى عنق الهرة قطعت يده وحلف اللورد ألا يعود إلى خدمة الحكومة مادام هو فى البلاد وزاده عقوبة فرفت ابنه من وكالة الداخلية فى اليوم التالى من استقالة أبيه فكان المستبد إسماعيل أخف وطأة على رياض باشا من المستبد كرومر. وأثنى كرومر على بطرس غالى باشا ومدحه بسعة الحيلة فى حل المشكلات فقال الشيخ على «نعم ولكنها المشكلات التى كان يخلقها اللورد بينه وبين الجناب العالى وبينه وبين قناصل الدول من جهة أخرى...» وتساءل الشيخ على «لماذا أعرض اللورد عند ذكر بقية الوزراء كأنهم ليسوا نظارًا فى الحكومة وليس لهم عمل فيها؟ وقد أشاد كرومر بالوفاق الإنجليزى الفرنسى الذى تم على يديه، فرد عليه الشيخ على وسرد له سلسلة من الإساءات التى اقترفها فى حق الثقافة الفرنسية والخبراء الفرنسيين وأنه يفعل ذلك حبًا فى مصر وأنه قال إنه يريد أن يحل محل كل قدم فرنساوية قدمًا إنجليزية ولم يكن كرومر يعدل عن هذه الخطة مرة إلا إذا جاءه الأمر من رؤسائه فى العاصمة البريطانية.

ويرى عباس العقاد أن براعة على يوسف فى التعقيب على أقوال كرومر كانت هى البراعة الموصوفة للرد على كل كلمة فيها بما يناسبها ويقلبها على صاحبها عند أنصاره قبل خصومه والشامتين به وبعهده. هكذا كان الشيخ على يوسف يحارب الاحتلال على طريقته فى التحليل والتعقيب والرد حتى أنه جعل من المؤيد فى ذلك الوقت أكبر منبرًا وطنيًا له سياسته الخاصة وأسلوبه المميز لكنه للأسف عندما ترك المؤيد بعد أن عينه الخديو عباس شيخًا للسجادة الوفائية فى ٥ مارس ١٩١٢ انهارت «المؤيد» ولم تستمر بنفس الوهج.

رأى الشاعر حافظ إبراهيم فى الشيخ على يوسف

صونوا يراع على فى متاحفكم ... وشاوروه لدى الأرزاء والنوب[1]

واستلهموه إذا ما الرأى أخطأكم ... يوم النضال عن الأوطان والنشب[2]

قد كان سلوة مصر فى مكارهها ... وكان جمرة مصر ساعة الغصب

فى شقه ومراميه وريقته ... ما فى الأساطيل من بطش ومن عطب

كم رد عناوين الغرب طامحة ... من الرزايا وكم جلى من الكرب

له صرير إذا جد النزال به ... ينسى الكماة صليل البيض والقضب

ما ضر من كان هذا فى أنامله ... أن يشهد الحرب لم يسكن إلى يلب

فلو رآه ابن أوس ما قرأت ... السيف أصدق أنباء من الكتب[3]

ألا فتى عربى يستقل به ... بعد الفقيد ويحمى حوزة الأدب

ويمنع الحق أن يغشى تبلجه ... ما فى السياسة من زور ومن كذب

أودى فتى الشرق بل شيخ الصحافة بل ... شيخ الوفائية الوضاحة الحسب

أقام فينا عصاميًا فعلمنا ... معنى الثبات ومعنى الجد والدأب

---

(١) يراع: القلم - الأرزاء والنوب: المصائب والكوارث.

(٢) النشب: العرض.

(٣) ابن أوس: الشاعر المشهور أبو تمام حبيب بن أوس الطائى.

obeikandl.com